العدد 16 — السنة الخامسة — تونس 1408 هـ — 1988 م — الثمن 800 م

21.15

مجلة للفكر الإسلامي المستقبلي

ملف
الماركسية العربية
وإشكالية الهوية

الدين والدولة

الدّولة الإسلامية حديثة وأكثر...

الدين والدولة في أوروبا

المرأة في فكر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

الماركسية واليسار الاسلامي : أية علاقة ؟

محمد القوماني

«قريبا مني... والله كذلك كان هنا... واحتشد الفلاحون عليَّ وبينهم كان علي وأبو ذر والاهوازي ولومومبا أو جيفارا أو ماركس أو ماو، لا أتذكر، فالثوار لهم وجه واحد في روحي».
مظفر النواب
- وتريات ليلية -

عندما ظهر مصطلح «اليسار الاسلامي» دافع عنه البعض وأنكره كثيرون وحذروا من محاكاته الماركسية، والتأثر باطروحاتها وحين دخلت تجربة «مجاهدي الشعب» الايرانية في مراجعات نظرية مهمة - وهي احدى فصائل الحركة الاسلامية - انتهى شق هام من مناضليها الى تبني الماركسية اللينينية. ويزعم كثيرون في الاوساط الاسلامية أن كتابات الدكتور حسن حنفي، ومشاريعه النظرية التي يطرحها باسم اليسار الاسلامي ليست إلا «الماركسية في جُبة الاسلام» وفي تونس يتهم «الاسلاميون التقدميون» بالماركسية، ويحرص خصومهم من الاسلاميين على اثبات التهمة عليهم. من هذه المنطلقات تبدو لنا مشروعية السؤال عن صلة اليسار الاسلامي بالماركسية؟ والى أي مدى ساهمت أزمة الماركسية العربية واليسار عموما في تبلور مشروع اليسار الاسلامي؟ وكيف تجتمع «الاسلامية» مع «اليسارية» في مشروع اليسار الاسلامي؟ وفي سؤال أخير : كيف يبدو مستقبل مشروع اليسار الاسلامي على ضوء أزمة الماركسية العربية واليسار خاصة، وعلى ضوء المراجعات الحاصلة في الفكر العربي المعاصر عموما؟.

ليست هذه المداخلة مقاربة نظرية بين الفكر الاسلامي والفكر الماركسي تستند الى المنطقات الفلسفية والمداخل النظرية ومصادر ومراجع كلا المدرستين. وليست المداخلة بحثا مفصلا في أزمة الماركسية العربية والتجربة اليسارية عموما في مستوياتها النظرية والحركية، وهي أيضا ليست تقديما لمشروع اليسار الاسلامي في نشأته ومنطلقاته وأطروحاته وافاقه.

بل نسجل منذ البداية أن هذه المداخلة تقف على جانب معين من صلة اليسار الاسلامي بأزمة الماركسية وتتحدد بما سبق طرحه من أسئلة في المقدمة. كان الاستاذ فتحي عثمان - المفكر الاسلامي المعروف - أول من استعمل - فيما أعلم - مصطلح «اليسار الاسلامي» على صفحات مجلة «المسلم المعاصر» في أول عدد لها. ففجر نقاشا حادا عكسته الأعداد الموالية لنفس المجلة. وقد أكدت الكتابات المتبنية لهذا التوجه أن اليسار الاسلامي أحد افرازات الحركة الاسلامية وهو حركة تصحيحية داخلها. لكن الذي نود اثارته ضمن هذا المقال هو السؤال التالي : اذا وضعنا أزمة الحركة الاسلامية في اطار ازمة الفكر العربي عموما الذي دخل في سلسلة من المراجعات والنقد اثر هزيمة 1967 بالخصوص هل يمكن اعتبار اليسار الاسلامي افرازا أيضا لأزمة الحركة الماركسية واليسار العربي عموما. وهو حركة تصحيحية داخلها أيضا؟.

تشويش المصطلحات

لا أكشف سرا اذا عبرت عن الاضطراب والتشويش الذي ينتباني وأنا أخط هذه المداخلة. ذلك أن مصطلحات ألفتها اذاننا وعاشرناها لمدة مشحونة بمضامين معينة، لكنها مع التطورات الحاصلة في الساحة الفكرية والسياسية خلال العقود الاخيرة باتت هذه المصطلحات مبهمة المدلول. وقد تؤدي الى معاني معاكسة أحيانا وهي في أدنى الحالات مشوشة وتدخل تشويشا على أفكار مستعمليها.

فـ «الاسلام» و«الحركة الاسلامية» و«الماركسية» و«اليسار» و«العلمانية» و«القومية» و«الهوية»... الخ.. كلها مصطلحات قد تكون ذات مدلول وضاح في حقبات سابقة من تاريخنا، لكنها اليوم لا نجدها تعبر عن حساسيات بينة المعالم في الواقع، وهي قوالب مسقطة تحدث لخبطة في الافكار والساحة، ولا تساعد على الحوار والتفاهم. فلماذا مثلا تحتكر «الاسلامية» أو

تقصر على طرف معين بعد أن أقرت مختلف الاطراف أو أغلبها على الاقل أن الاسلام كمعطى ثقافي وحضاري منطلقا ومرجعا لمشاريعها؟! ولماذا تحتكر «اليسارية» أو تقصر على جهة معينة بعد ما أثبت، الواقع أن قوى التغيير والطلائع المناضلة، وجبهة المعارضة تضم أطرافا من حساسيات ذات مشارب ومنطلقات متعددة؟!

ونفس الاسئلة يمكن تعميمها على «الهوية» و«القومية» و«العلمانية» وغيرها بعد الوقوف على طبيعة هذا التشويش وأسبابه واستتباعاته أجدني مضطرا في هذا المقال أساسا أن أستعمل مصطلحات «الاسلامية» و«اليسارية» و«الماركسية» استعمالا اجرائيا للتعبير عن الحساسيات والقوى التي ارتبطت بها هذه التسميات رغم اقتناعي والحاحي على ضرورة المراجعة واعتراضي على استعمالاتها الحالية.

★ معضلات الواقع

يمكن ارجاع أسباب أزمة التجربة الماركسية العربية الى العوامل الرئيسية التالية :

1 ـ جمود النظرية : وهو ما تترجمه القراءة الحرفية لمصادر الفكر الماركسي والتمسك بالنظرية ضمن خصوصياتها الاوروبية، وخاصة تحويل منهج المادية التاريخية الى قوالب جامدة تسقط على ماضي وحاضر مجتمعاتنا. ولعل الدكتور محمد عابد الجابري مثلا ـ صاحب الماضي الماركسي ـ قد وقف مع كثيرون على سلبية هذا التوجه، مما جعله بعد المراجعات التي قام بها يمثل الى بحثه واستيعابه لقوانين الخطاب العربي، ضمن مشروع نقد العقل العربي ـ وليس تحليل الممارسة والبنية الاقتصادية فقط كما يعمل الماركسيون وقد علل الدكتور الجابري توجهه الجديد بقوله «الصراع في مجتمع كمجتمعنا العربي، أو المغربي، ليس بالضرورة مدفوعا بدوافع طبقية مصلحية ايديولوجية ، بل السلطات الفكرية المرجعية هي التي تتصارع فيما بينها.ليست هي الكل وانما لها دور كبير في الصراعات الموجودة (...) وهذا التعدد في السلط المرجعية وتصادمها ينعكس في

« مجاهدي خلق إيران » : مراجعات ممزقة

المجتمع فيكون لها دور كبير في الصراع الاجتماعي وبالتالي ليس الصراع الطبقي وحده هو المحرك للصراعات السياسية أو الاختلافات الايديولوجية»[1].

2 ـ الاستهتار بالاخلاق : دأب الماركسيون خلال تجربتهم على الفصل بين الايديولوجية والاخلاق، بين النظرة الثورية والسلوك الثوري[2]. ولئن كان للماركسيين منهجهم في تفسير الاخلاق وضبط القيم، ـ وهو موضوع ثان ـ فان النظرة الفاحصة للواقع، وخلاصات العمل الثوري وتجاربه تؤكد أن الجماهير في أوساطنا تربط بين الحق والخير، بين النضال والعمل الصالح، بين التغيير والقدوة. لذلك لا تزال نافرة من الانتساب الى الجماعات الثورية واليسارية خصوصا والتوجه اليها بمشاعرها فالمقياس الخلقي عند الجماهير هو في الحقيقة مقدمة للانتماء الفكري والانضمام السياسي «الجماهير ما زالت تؤمن بالقدوة الحسنة، وبالفعل الطيب وبطاعة أوامر الدين. واجتناب نواهيه، ومن ثم كان من السهل أن تخرج قياداتها الوطنية من أئمة المساجد وفتوات الحارات. فالقدوة الحسنة هي الرباط بين الجماهير وقياداتها. وهي في الغالب قدوة حسنة خلقية، فهي جماهير سنية»[3]. ولأن القيم والمفاهيم الاخلاقية من أهم مميزات البنى الثقافية ولأن الجماهير ما زالت محكومة بثقافة تقليدية، فان ادعاء الماركسيين فهما مغايرا وجديدا للاخلاق لن يقنع الجماهير بسلوكهم وستبقى المشكلة الاخلاقية صخرة تتكسر عليها التجارب الحركية للماركسية وتسبب عزلتهم وانحسارهم.

3 ـ التوتر تجاه المسألة الدينية : لم يخفق الماركسيون العرب في التعامل مع قضية، بقدر اخفاقهم في التعامل مع المسألة الدينية وقضية الاسلام خصوصا. فمقولة «الدين أفيون الشعوب» ـ والتي قد يكون لها مدلولا تاريخيا ما ـ كانت احدى القوالب التي كلست فكر الماركسيين العرب وأقعدتهم عن فهم علمي/موضوعي لطبيعة الاسلام، وتأثيراته الماضية والحاضرة في أوساطنا. ذلك أن للاسلام خصوصيات مهمة ـ لا يصعب على الماركسيين ادراكها ـ تميزه عن المسيحية / الكنسية التي عرفها ماركس وانجلز والاهم من ذلك ان الاسلام قد ارتبط بالتجربة التاريخية للامة في مختلف المستويات مما جعله أهم مقوماتها ورباط لا يمكن فصلها عنه ولا أبعاده عنها. فالاسلام كمعطى ثقافي وحضاري لا يمكن لمن أغفله أو أسقطه من حسابه أن يمتلك رؤية صائبة في فهم ماضي الامة أو حاضرها فضلا على أن ينجح في تجربة من أجل تغيير واقعها مستقبلا. لذلك كان الالحاد الفج ومعاداة الدين عاملا رئيسيا في انحسار التيارات الماركسية في ساحاتنا. ولأن الاسلام شديد الصلة بتكويننا التاريخي، ولأن الايمان والالحاد مقولتان نظريتان لا يثبت مدلولهما ولا يمكن تقيمهما إلا في ضوء الواقع والممارسة. فإن معاداة الدين والتبجح بالالحاد في واقعنا العربي الاسلامي لا يرتبط ضرورة بالعقلانية والعلمانية والحداثة. وان التنكر للاسلام ليس شرطا للتقدم. ولعل الأستاذ ياسين الحافظ قد وقف على هذه الحقيقة في مراجعاته اذ يقول : «ان العالم الايديولوجي أو الثقافي للناس لم يبنى بأحجار عقلانية وواقعية، لذا فان ذبول معتقد ايماني ديني في عقل من العقول لا يعقبه بالضرورة انبثاق توجهات عقلانية فيغدو ايمانية مقلوبة. وهذا هو الذي يفسر ـ مع أسباب أخرى ـ الطابع المعتقدي الايماني للماركسية العربية»[4] فيما يظنه

البعض إلحاد اذن قد يكون ايمانا صحيح وما يظنه اخرون إيمانا قد يكون الحادا صحيحا. وعلى العموم فان نزعة التوتر تجاه الاسلام في ساحتنا وثقافتنا لا مبرر لها.

4 ـ العلاقة بالخارج : وهي مسألة سياسية بالدرجة الأولى لا نريد التعمق فيها. ويكفي أن نشير أن الفهم المغلوط للاممية ـ العالمية قد جعل الماركسيين ـ وخاصة مع الماركسية المُسفيتة التي جسدتها الأحزاب الشيوعية العربية ـ يرتبطون في برامجهم وتحالفاتهم ومواقفهم بالاتحاد السوفياتي رأسا وأساسا.

★ ثغرات... لكن مكاسب أيضا

إن الكشف عما سبق تحليله ونقده من ثغرات في المنهج والتجربة الماركسية العربية لا ينفي ولا يجب أن ينسينا بأية حال ريادة هذه التجربة في التصدي لمشكلات خطرة في واقعنا، وما حققته الماركسية من مكاسب هامة في الرصيد النظري والحركي للتجربة التقدمية العربية عموما. فعلى المستوى النظري يعد من المكابرة والجحود ان نتنكر لمزايا نظرية فائض القيمة في تحليل العلاقات الرأسمالية والكشف عن العمليات الاستغلالية التي تمارسها البورجوازية على حساب الطبقة الشغيلة.

اليسار الاسلامي خيار جديد لرفع التناقض المصطنع بين قوى التغيير الواحدة وتوحيد الصف بين رفاق الجهاد.

وفي نفس السياق أيضا يعسر فهم طبيعة الظاهرة الامبريالية، وطريق تحقيق استقلالنا الاقتصادي، دون الاستناد الى الاضافات النظرية للماركسيين كما أن التحاليل والقرارات الاجتماعية / الطبقية للماضي والحاضر العربي ـ رغم ما تضمنته من تعسف على الواقع ـ قد كشفت عن جوانب مهمة في هذا الواقع واظهرت أبعادا كانت مغمورة فيه أو تكاد. هذه الأبعاد النظرية التي ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر تعد رصيدا مهما لكوننة الفكر العربي وتحديثه خاصة اذا استعملت بعقل مستنير متخلص من كل وصاية.

وفي المستوى الحركي / النضالي يشهد تاريخنا المعاصر للماركسيين، اهتمامهم بقضايا الواقع، وخاصة في أبعاده الاجتماعية ـ رغم الخلل النظري الذي سبقت الاشارة اليه ـ وخاصة نضالهم النقابي ودفاعهم عن الطبقة العاملة ودعمهم للخيار الاشتراكي. اضافة الى التجربة النضالية السياسية والتنظيمية التي أسهم بها الماركسيون والتضحيات الجسام التي قدموها في سبيل تطوير الواقع. هذه الامثلة التي سقناها عن المساهمة الايجابية للماركسية العربية ليست ورودا أو تزكية وصكوك غفران، بل هي شهادات تمليها الرؤية الموضوعية وانصاف التجربة بما لها وبما عليها وحتى لا نكون ممن يصدق فيهم المثل الشعبي (يأكلون الغلة ويسبون الملة).

فاذا تكاملت في أذهاننا الصورة بوجهيها، أمكننا أن نتلمس صلة أزمة في الحركة الاسلامية، والياته التقليدية، وأطروحاته المفوتة ويطرح نفسه حركة تصحيحية في الحركة الاسلامية. يبدو اليسار الاسلامي ـ في نفس الوقت ـ مستفيدا من تجربة الماركسية العربية، ينهل من فكرها ـ دون توتر أو انغلاق ـ ما يساعده على فهم واقعه ولحظته التاريخية، واليسار الاسلامي واقعيا ـ وهو الاهم ـ يلتقي مع الماركسيين في مهمات وأوليوات كثيرة يطرحها الواقع ويتصدى لتحديات كان للماركسيين الريادة فيها وخاصة المسألة الاجتماعية / الاقتصادية التي كادت أن تكون منعدمة عند الاسلاميين.

لكن هذا التقارب لا ينسخ الاختلافات الفلسفية، ولا يطمس صراعات في مستويات أخرى.فاليسار الاسلامي من أهم ما يستقطب اهتمامه ويلح عليه، قضايا التراث والتجديد ومواصلة مشروع الاصلاح الديني من أجل كسب معركة العقلانية والتنوير وتحويل الدين الى ايديولوجية ثورية تخدم مطالب العصر. وهنا يحتد انتقاد اليسار الاسلامي لمشروع السلفية الدينية، ولكن أيضا وبنفس الدرجة يحتد انتقاده لمشروع الماركسيين العرب. فيعتبر الية تفكيرهم سلفية أيضا، ويشدد في نقد تعاملهم مع تراثنا القديم ومع خصوصيات بيئتنا الثقافية وفي موقفهم من الهوية والاسلام خصوصا. فهل يقدر اليسار الاسلامي أن يكون وريثا للتجربة الاسلامية والماركسية عموما وضمن أي خيار؟

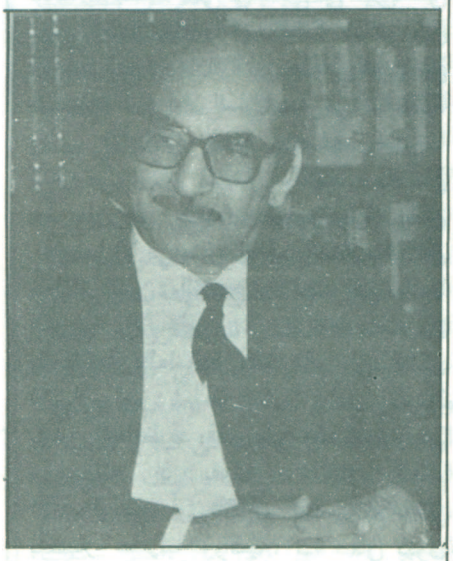

محمد عابد الجابري

نحو خيار جديد

يطرح اليسار الاسلامي نفسه حركة تصحيحية في الحركة الاسلامية - وهو موضوع مداخلة أخرى - ولكن يطرح نفسه أيضا خيارا جديدا في الحركة اليسارية والتقدمية عموما. وهو بهذا المعنى افراز موضوعي لأزمة الماركسية والحركة اليسارية العربية في ساحتنا واضافة من أجل الافضل من هنا يكون اليسار الاسلامي - ان سلم الاستعمال - أكثر من ماركسي. فهو يطرح قضايا الثورة والاشتراكية وحماية الطبقة الشغيلة والتصدي للامبريالية العالمية وتحقيق اقتصاد وطني مستقل و...، ضمن وعي وأطروحات نظرية حديثة وتقدمية، لكنه في نفس الوقت يتجاوز الحرفية، والترديد ليرتبط بواقعه وخصوصيات بيئته الثقافية. فيرى التراث مخزونا نفسيا للجماهير، وأحد معطيات الواقع الاساسية، ويطرح تجديد التراث كأولوية، حتى يتحول الى بواعث على العمل الثوري والتقدمي • واليسار الاسلامي يرى الاسلام مقوما أساسيا لذاتيتنا، متشابكا مع تراثنا، ومنهلا لاستلهام التوجهات والقيم التي يحتاجها تطوير واقعنا، وهو العامل الرئيسي في تعبئة ناجحة لجماهير الامة من أجل مطالبها في العقلانية والحرية و«الاشتراكية» والوحدة والتنمية والتقدم • ضمن هذه التوجهات يتصالح الماركسيون مع التراث والاسلام، وتجتمع «اليسارية» بالاسلامية في مشروع «اليسار الاسلامي» حتى لا تبقى «الاسلامية» سيفا مسلطا على الرقاب وصخرة تحجب عنا نور العصر. وأيضا حتى لا تبقى «اليسارية» نشازا «يسار ثلثه باللسان وثلثاه عند اليمين» *.

بناء على هذه المقدمات والآفاق التي تقدم شرحها في هذه المداخلة، لا يستمد مشروع اليسار الاسلامي مشروعيته من أزمة الاخرين أو فشلهم، اذ اليسار الاسلامي ليس غاية في حد ذاته، بل اليسار الاسلامي حاجة موضوعية، واسهام جاد في تحليل أزمتنا المعاصرة واقتراح صائب من أجل التجاوز • واليسار الاسلامي ليس انحيازا لأي طرف من أطراف التغيير الاجتماعي، وفي مقدمتها قوى الحركة الاسلامية والقوى اليسارية. وانما اليسار الاسلامي خيار جديد لرفع التناقض المصطنع بين قوى التغيير الواحدة وتوحيد الصف بين رفاق الجهاد. اليسار الاسلامي مشروع نظري وحركة ثورية تستهدف التقدم بواقعنا وفق مقتضيات العصر.

الهوامش :

(1) حوار مع الدكتور محمد عابر الجاري - مسار كتاب - مجلة الكرمل - عدد 1 ص 168.

(2) انظر اعترافات المناضل اليساري التونسي نور الدين بن خضر - حوار مجلة المغرب العربي - 1 أفريل 1988.

(3) د. حسن حنفي - التراث والتجديد ص 50، ط. مكتبة الجديد.

(4) الاستاذ ياسين الحافظ، الهزيمة والايديولوجيا المهزومة ص 18 - دار الطليعة ط 1 1979.

(*) انظر لقاء الدين بالواقع، المسيحية باليسارية، الكنيسة بالبروليتاريا في تجربة أمريكا اللاتينية فيما عرف «بلاهوت التحرر».

21•15

من أجل حوار ديمقراطي

قسيمة الاشتراك 21•15

الاسم: ----------

اللقب: ----------

العنوان: ----------

■ الحساب البريدي الجاري 1777.86

■ الحساب البنكي بالبنك التونسي 318 514

عادي	8د. تونسي
تشجيعي	15د. تونسي
للمؤسسات	50د. تونسي
شرفي	دون حدود
المغرب العربي	$ 25
المشرق العربي	$ 35
أوروبا	$ 40
باقي العالم	$ 50

(21 • 15)